

الحملة على الأغواط (نوفمبر 1852 من خلال رسالة الجنرال

يوسف إلى الجنرال بيليسي

الدكتور مصطفى عبيد

الدكتور محمد يعيش

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

تعريف بالوثيقة:

الوثيقة محل النموذج الآن هي رسالة من الجنرال يوسف¹ وردت إلى الجنرال بيليسي² بتاريخ 21 نوفمبر 1852 قبيل الحملة الفرنسية على الأغواط. وهي

1 - الجنرال يوسف واحد من أهم جنرالات فرنسا قمعا للجزائريين، تقلد في الجزائر القيادة على مناطق مختلفة منها قائد قطاع الجزائر، كما عمل بالتنسيق مع جنرالات فرنسا من أجل قمع منطقة المقاومة في منطقة القبائل وضد الأمير عبد القادر وفي اخضاع مناطق كثيرة في شرق البلاد وغربها في شمالها وجنوبها ... ثم انتقل إلى الجنوب الغربي للجزائر لا سيما ابتداء من مقاومة الأغواط هذه واستمرارا رفقة قادة فرنسيين آخرين بالقضاء على مقاومة أولاد سيدي الشيخ منذ منتصف شهر فيفري 1864. ينظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 01 ق 02، 1860 _ 1900، بموسوعة أعمال الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار عالم المعرفة الدولية، الجزائر، طبعة خاصة 2015، ص 186، 187 و 474.

2 - المعروف عن الجنرال بيليسي دي رينو (Péllissier de Reynaud) أنه رجل بطش ومن بطشه نذكر مجزرة غار الفراشيش بجبال الظهرة بأولاد رياح والتي فاق عدد ضحاياها

محافظة بالعبلة رقم 417 X 8 برصيد الحكومة العامة بالجزائر (GGA) بأرشيف آكس اون بروفانس بمرسيليا بفرنسا.
تتكون الوثيقة (الرسالة) من صفحتين من الحجم العادي (A 4)
نص الرسالة:

نسخة من رسالة الجنرال يوسف إلى الجنرال بيليسي قبيل الحملة على الأغواط
21 نوفمبر 1852.

*Copie d'une lettre de général Youcef au général
Pillissier avant la prise de l'Aghoua t
(21 Novembre 1852)*

المصدر: الأرشيف الوطني لما وراء البحار بآكس اون بروفونس بمرسيليا -فرنسا-
الرصيد: الحكومة العامة بالجزائر (GGA) العبلة: 417 X 8 .
سيدي حضرة الجنرال:

لقد استقبلت اليوم بالقرب من الأغواط وعلى وقع الرصاص رجال الشريف

الألف شخص من جميع الفئات ومن الجنسين. كما أصبح بعد ذلك ابتداء من 24 نوفمبر 1860 حاكما عاما على الجزائر بعد إعادة تأسيس الحكومة العامة بعد تجربة وزارة الجزائر والمستعمرات التي غطت فترة 1858 - 1860. ينظر: مصطفى عبيد، الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر 1833 - 1870، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2013، ص 75.

فرسانا وفتنازية وعدد غفير جدا من المواطنين. لقد كسبنا معركة في غاية الأهمية حيث تجاوزت الساعة من اجل الدخول غلى واحات المدينة. وقد تمكن فرساننا من تحقيق انتصارا كبيرا حيث خلف العدو (الجزائريون) أكثر من مائة قتيل (شهيد) منهم قادة كثيرون تم التعرف عليهم.

لقد قادت كئائي المعركة بكثير من الهدوء والدم البارد وقد كلفنا ذلك 05 قتلى و 12 جريحا، كلهم في حالة خطيرة. وقد كان النقيب دو ستال (De Stail)¹ أحد قناصي جيش إفريقيا من بين الجرحى. حيث أصابته رصالة كسرت كتفه. هذا إضافة إلى قتيلين اثنين وثلاثة جرحى من فرساننا.

وقد تمركزت المقاومة وتموقعت في مدينة الأغواط التي تحصن بها الشريف ورجاله، بينما أرسلت المواشي والنساء نحو الجنوب. وباعتبار أن أهل الأغواط من الفتنازية فقد ردوا على خطاب السلم والأمان بالرغبة في الاستشهاد من أجل ضمان الجنة.

إن الوضعية خطيرة، لقد أضحت الأغواط بؤرة للمقاومة وستغدو أكثر صلابة وشراسة. ولا أظن انه من الحكمة مهاجمة المدينة بالقوة التي هي تحت تصرفي

1 - قتل في هذه المعركة ضباط كثيرون كما تشير الرسالة. وفي الوقت الذي يشير الجنرال يوسف إلى جرح خطير للقناص النقيب دو ستال فإن الباحث في تاريخ الأغواط محمود علالي يشير إلى مقتله رفقة الجنرال بوسكرين والرائد موران . محمود علالي، الحركة الإصلاحية في الأغواط، دار اللواء، الجزائر، 2013، ص 50، هـ 57. ولإشارة ان هذه الحصيلة من الخسائر البشرية هل حصيلة أولية جدا أي قبل بدء عمليات الاحتلال الفعلية.

حاليا. لست متخوفا من الهزيمة وإنما سيكلفنا ذلك الكثير من الخسائر البشرية وسيكون الانتصار، ربما، غير مكتمل. ولا تنس سيدي حضرة الجنرال باسم سعادتك استدعاء النفر لتجنب زعاطشة جديدة. عليك بالتعجيل ولا تترك الوقت للعدو لينظم امكاناته القوية جدا. دعني أقول لك ان العدو في مرحلة الحشد التي يقوم بها السيد سي النعيمي.

كما ان مسألة التموين بالشعير لا تقلق حاليا إذ هي كافية لمدة 10 أيام قادمة.

إنني على بعد 1800 م من مقر مدينة رافد العيون، حيث يخيم الهدوء وعدم القتال ليلا ولا أظن أن رجال الشريف سيحاولون التقدم نحو الجبال. وإنما لابد ان ندفعهم إلى مقاومة داخل المدينة. لابد أن تعلم فيالق الرائد بان (Pein)¹ أن مدينة الأغواط حاليا هي هدفنا ونحن امام فرصة متاحة. وإذا تم لنا ذلك فلن يتبقى لنا سوى خطوة واحدة للتمكن من الجنوب.

إنني انتظر تجاوبكم الفعال مع هذه المستجدات، والأحسن أن تأتي شخصيا لقيادة تلك العمليات.

وتقبلوا مني سيدي حضرة الجنرال خالص تحياتي.

1- كان النقيب "بان" حينذاك هو القائد الأعلى لقوات جيش الاحتلال بمنطقة بوسعادة. ينظر: إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837 - 1934، دار هومة، الجزائر، 2005، ص 113.

جنرال المفزة قائد مقاطعة المدية يوسف.

توضيح كيفية الاستفادة من هذه الوثيقة:

إن أول ما نفتتح بها مداخلتنا هذه هي التنبيه إلى أن هذا العرض ليس تحليلا تاريخيا للوثيقة المذكورة وفق الخطوات المنهجية المعروفة، فذلك قد أصبح معروفا لدى الطلبة والباحثين عموما وليس هو موضوعا على الاطلاق الآن، وإنما غايتنا من هذا العرض هي توضيح كيفية قراءة الوثيقة التاريخية قراءة مثلى تجعل الطالب الباحث يستفيد منها استفادة علمية في ضوء الخطوات المنهجية المتعارف عليها بين الباحثين. وهو ما يتوافق مع خصوصية الندوة التاريخية لهذا اليوم والمبرجة حول منهجية اعداد أطروحات الدكتوراه تحت عنوان: الأرشيف واشكاليات كتابة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

إن عبارة "لقد استقبلت اليوم" التي افتتح بها الجنرال يوسف رسالته تفيد أن رجال المقاومة خرجوا لملاقاة العدو، كما تفيد أيضا أن رجال المقاومة هم رجال متطوعون وليس جيشا نظاميا. ومما يؤكد ان رجال المقاومة كانوا من المتطوعين من أبناء المنطقة هي قوله في الجملة الموالية: "رجال الشريف فرسانا وفتنازية" حيث ان تعبير الفتنازية يعبر عن الفرسان الخيالة المغنين بفن الفلكلور الشعبي الخاص بالمنطقة لا سيما بالجنوب الغربي الجزائري ومنه الأغواط. وهو الفن المتمثل في بعض الحركات الجسدية المعبرة عن تناغم مع موسيقى احتفالات معينة مقرونة بألعاب فروسية مشهورة بالمنطقة من ضرب على الناي وطلقات بنادق الصيد. وبالتالي فهؤلاء

الفرسان الموصوفين بالفتنازية دليل على أنهم من أبناء المنطقة وليس جيشا نظاميا مختلطا من مناطق مختلفة كما ان المعطيات التاريخية تؤكد هذا أيضا.

كما ان جملة " ... على وقع الرصاص ... " تفيد أن الجنرال يوسف كان ينظر إلى المقاومة بادئ الأمر نظرة احتقار. ومما يتبين من الرسالة أيضا، أن المقاومة ورغم أنها كانت من المتطوعين إلا انها كانت منظمة والدليل من الوثيقة قول الجنرال يوسف: "حيث خلف العدو (يقصد الجزائريين) أكثر من مائة قتيل (يقصد شهيد) منهم قادة كثيرون تم التعرف عليهم. فلفظ "قادة" يدل على أن الجيش وان كان من المتطوعين كما أسلفنا الذكر إلا انه كان منظما تتيما محكما حيث كان القائد الأعلى للمقاومة وهو الشريف محمد بن عبد الله وله قادة مساعدون يسهرون على تنظيم الجيش وقيادته وأنهم معروفون أي لهم سابق عهد بالعمل في صفوف حركة المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر قبل أن تصل إلى منطقة الأغواط وأنهم من أعيان المنطقة.

قضية أخرى هامة يمكن ان نستنتجها من هذه الوثيقة وهي أن الجيش الفرنسي فقد 05 قتلى و 12 جريحا بينما فقد أبناء الأغواط 100 شهيد، أي أن النسبة هي 05 بالمائة من عدد الخسائر البشرية. وهي نسبة تدفع الباحثين إلى الاستعانة بالدراسات المتخصصة في مثل هذه القضايا ونخص بالذكر هنا الدراسات العسكرية البحتة التي تهتم بدراسة نتائج المعارك الحربية. وذلك لنتمكن من الخروج بخلاصات صحيحة اكاديميا. ونشير هنا إلى ملاحظة ذات قيمة كبيرة جدا وهي ان القناص

الفرنسي دو ستال كان من بين الجرحى الذين هم في وضعية حرجة جدا. ونحن نعلم القيمة الكبيرة لسقوط قتلى وجرحى من بين الضباط او القناصين.

كما ننبه هنا إلى ضرورة توظيف المنهج التاريخي الإحصائي في مثل هذه الحالات التي ترد فيها إحصائيات معينة مهما كان نوعها، توظيفا حقيقيا بطريقة علمية وليس مجرد توظيف سطحي أو توظيف خاطئ كمن يعلق تعليقات احصائية وهو لا يعلم شيئا عن الإحصاء ولا عن الموضوع الذي يتناوله بالاحصاء وهو هنا معركة عسكرية التي تدعوننا كما ذكرنا إلى الاستفادة من قراءة العسكريين لها ونعمل للوصول إلى تلك القراءة بمختلف الطرق الأكاديمية ولو ادعى بنا الأمر إلى التواصل مع رجال الميدان من العسكريين لابداء شرح وافٍ يخدم الباحث في فهمه وتعليقه عن مثل هذه المعارك.

ومما لا بد أن ينتبه إليه الطالب في قراءته للوثائق وتهمنا هنا هذه الوثيقة المدروسة (رسالة الجنرال يوسف) هي مختلف الأفكار التي تحتويها الوثائق والتي تعبر سواء عن أيديولوجية المؤلف أو الجهة المحررة للوثيقة، أو أيديولوجية الطرف الذي تكتب عنه الوثيقة. وتهمنا هنا مثلا الجملة التالية: "...وباعتبار أن اهل الأغواط من الفنتازية فقد ردوا على خطاب السلم والأمان بالرغبة في الاستشهاد من أجل ضمان اللجنة" هنا لا بد للطالب والباحث عموما ان يكون متمحصا في دراسته للوثائق مركزا مع كل كلمة فيها، وفيما بين سطورها. وهنا توضح الوثيقة مدى تفاجأ الجنرال يوسف بالروح الدينية التي كانت تحرك الحركة الثورية وروح المقاومة بالجزائر كلها ضد المحتل الفرنسي ألا وهي نداء الجهاد في سبيل الله تعالى. لأن ذلك

طريقا إلى اللجنة كما هو في المعتقد الإسلامي وهو الاعتقاد السائد طبعا بين كل الجزائريين. وبالتالي كان ذلك القوة الذهنية التي ساهمت في انتصارات الجزائريين ضد الفرنسيين رغم اختلاف القوة والعتاد، ليس في هذه المقاومة فحسب وإنما في باقي المقاومات الشعبية قبل مقاومة الأغواط وبعدها إلى غاية تحقيق الاستقلال سنة 1962.

في النصف الأخير من الرسالة يعلن الجنرال يوسف أن الجيش الفرنسي لن يجد منطقة الأغواط لقمة سائغة، كما أنه لن يجد الطريق معبدا في مشروعه من أجل الوصول إلى الصحراء الجزائرية وإلى تونس أيضا (لأنها كانت مشروع خارطة طريق آنذاك)، فقد اعتبرت الوثيقة أن المنطقة غير مستقرة لفرنسا وان الجيش الفرنسي سوف تتحطم أهدافه وآماله على جدران مدينة الأغواط، وذلك في قول الجنرال يوسف: "... إن الوضعية خطيرة، لقد أضحت الأغواط بؤرة توتر للمقاومة وستغدو أكثر صلابة وشراسة..." كما دعا إلى ضرورة المدد إذا أرادت فرنسا العمل على تحقيق أهدافها في بسط الاحتلال نحو الصحراء وتونس ... وذلك مما جاء في الرسالة: "... ولا أظن أنه من الحكمة مواجهة المدينة بالقوة التي هي تحت تصرفي حاليا. لست متخوفا من الهزيمة وإنما سيكلفنا ذلك الكثير من الخسائر البشرية وسيكون الانتصار، ربما، غير مكتمل، ولا تنس سيدي حضرة الجنرال باسم سعادتك استدعاء النفر لتجنب زعاطشة جديدة، عليك بالتعجيل ولا تترك الوقت للعدو لينظم إمكاناته القوية جدا". وهذا كلام واضح جدا عن مدى قوة المقاومة التي وجدها الجنرال يوسف تحمي مدينة الأغواط (كما انه اعترف أيضا من

الفرنسيين أنفسهم بقوة مقاومة الزعاطشة) كما أنه اعتراف واضح بعجز فرنسا عن تحقيق أهدافها كما أرادت وخططت. أو على الأقل عجزها عن تحقيق أهدافها بما يليق بقوة بقوة جيشها مقارنة بحركة المقاومة التي تختلف عنها في العدة والعتاد والعمل النظامي. خاصة إذا علمنا ان منطقة الأغواط وقبلها الزعاطشة تفتقد إلى الغطاء الطبيعي فهي أرض صحراوية تسهيل من مهمة الجيش الفرنسي فيما تعيق وتحد من قوة حركة المقاومة لأنها منطقة مكشوفة.

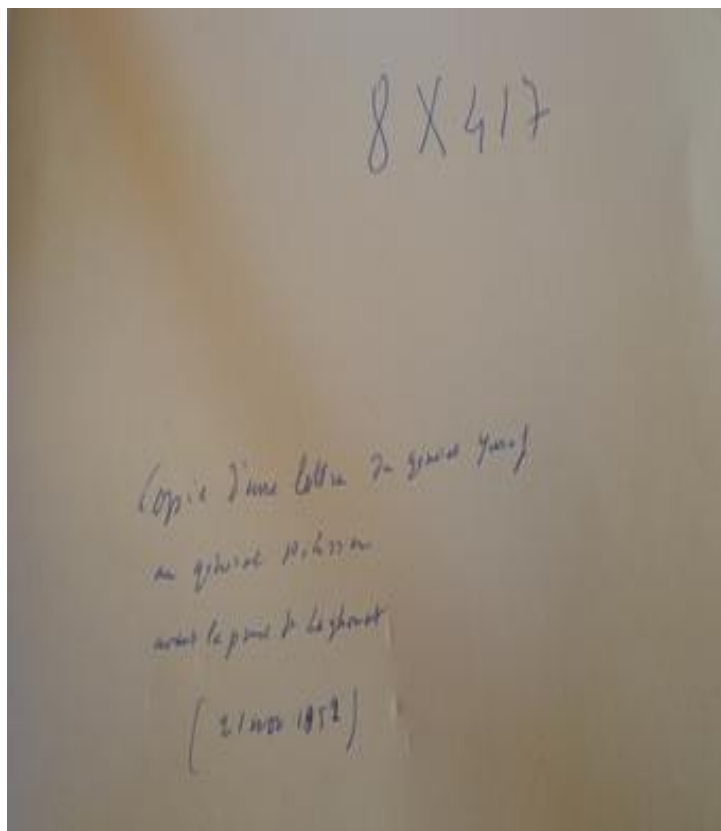
ولابد أن نشير في ختام هذا العرض الذي يوضح لكم (طلبة الدكتوراه) كيفية الاستفادة من الوثائق ومعلوماتها وتوظيفها ... أن الجنرال يوسف لم يكن فقط متخوفا وإنما اضطر إلى الإعلان عن قضيتين في منتهى الخطورة بالنسبة لقائد في مكانة الجنرال يوسف والجنرالات الفرنسيين عموما ، وهما: دعوته الجنرال بيليسي إلى ارسال المدد لدعم جيش الاحتلال الفرنسي القوي المجهز ... من أجل الانتصار على المقاومين العزل في الأغواط الذين لا يملكون إلا أبسط أنواع الأسلحة من سيوف وبنادق صيد ولكنهم مدعمون بروح معنوية عالية نحو الجهاد والدفاع عن الأرض يقويها الايمان بالنصر أو الشهادة وهوما اعترف به الجنرال يوسف في رسالته هذه كما مر معنا.

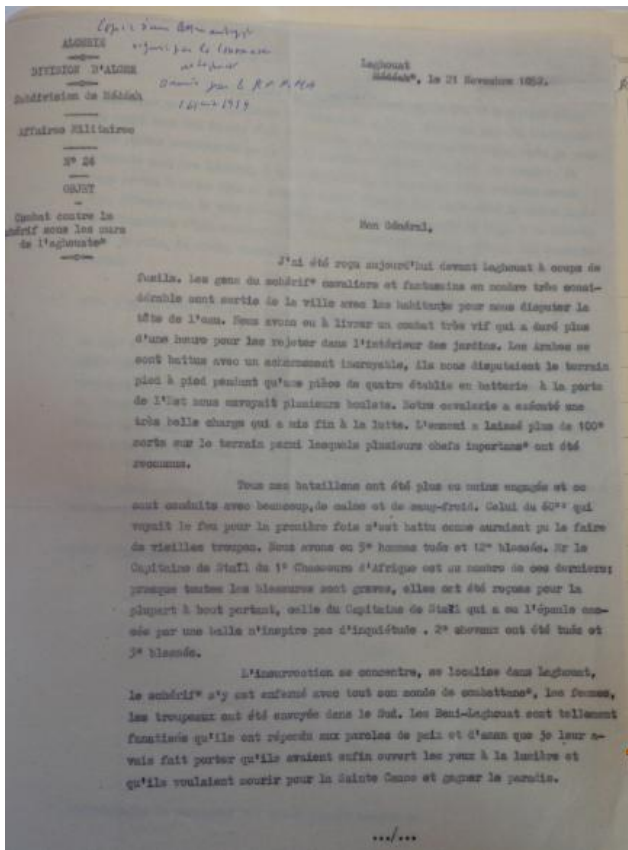
اما النقطة الثانية التي اعلنها الجنرال يوسف وهي القضية الأخطر وتبين مدى الرعب والذهول الذي أصابه حين دعا الجنرال بيليسي إلى القدوم لمواصلة قيادة المعركة في الأغواط بنفسه وقد كانت هذه الدعوة صريحة حين قال : "... وإني أنتظر تجاوبكم الفعال مع هذه المستجدات، والأحسن أن تأتي شخصيا لقيادة تلك

العمليات". وللعلم فإن الجنرال بيليسي معروف بمجازره ضد الجزائريين من خلال سياسته المتبعة بالجزائر حين كان حاكما عاما عليها أو حين قيادته لمختلف العمليات الحربية. وقد كانت أخطر عملياته على الاطلاق حين أمر بحرق قبيلة اولاد رباح بجبال الظهرة في جوان 1845. فماتوا اختناقا داخل الكهف كما ذكرنا في بداية عرض هذه الوثيقة.

وفي الختام نتمنى ان نكون قد وفقنا في عرض هذه الوثيقة ليس عرضا تاريخيا منهجيا كما هو معروف في تحليل الوثائق لأن ليس ذلك عملنا هنا، وإنما عرضا توضيحيا في كيفية استخلاص الطالب والباحث عموما معلوماته من وثيقة عثر عليها تخدم موضوع بحثه.

ملحق: نص الوثيقة:





- 2 -

La situation est grave, Laghouat est devenu le boulevard d'une résistance qui sera épuisée et désespérée ; je ne crois pas prudent d'attaquer la ville avec les forces dont je dispose, je ne crains pas un échec, mais je pourrais perdre beaucoup de monde et le succès ne serait peut-être pas complet. Je n'hésite pas, mon Général, à vous demander le concours de votre colonne; venez vous mettre à notre tête et nous en aurons bientôt fini avec cette nouvelle Kabylie. Écrivez-moi, je vous en supplie, il ne faut pas laisser le temps à la défense de s'organiser d'une manière trop forte. Le Schérif attend, dit-on, des renforts dont je vais, du reste, surveiller les mouvements (si Moudjoudjoud envoie des renforts).

Que la question des vivres et de l'argent ne vous inquiète pas, j'en ai pour 10^e jours à votre disposition et pour toute votre colonne.

Je suis campé à 1000^e mètres de la ville à Safi-el-afoum. La nuit a été parfaitement tranquille et pas un coup de fusil n'a été tiré. Je ne crois pas que les gens du Schérif aient tenté de se montrer de nouveau en masse en campagne, mais il faut s'attendre à trouver dans la ville une vigoureuse résistance. J'appelle à moi la petite colonne de M. le Commandant Fain. Laghouat est maintenant le point objectif et nous courons la chance, si nous sommes heureux, d'en finir d'un seul coup avec les affaires du sud.

J'attends avec la plus vive impatience de vos nouvelles. La meilleure que vous puissiez me donner c'est que vous veniez en personne diriger les opérations.

Veuillez agréer, mon Général, l'assurance de mon respectueux dévouement.

Le Général de Brigade
Commandant la Subdivision de Médjah

TUNIS.